الأثار الحضارية للفتح الإسلامي ببلاد المغرب

ط/د.إيمان شعبان
جامعة الجزائر 2- أبو القاسم سعد الله-

الملخص:

استغرق الفتح لبلاد المغرب مدة طويلة تكاد تقرب السبعين عاما، و ذلك لصعوبة البلاد من الناحية الجغرافية، واشتداد المقاومة البربرية. ضف الى ذلك الصراعات مع القوى البيزنطية، و قد قدم المسلمون الى بلاد المغرب من أجل نشر الدين الإسلامي بين ربوع البربر، وليس كما يعتقد البعض أنهم قدموا من أجل الغنائم و السبي، وخير دليل على ذلك ما ترتبه الفتح من أثار حضارية عميقة شملت النواحي الاجتماعية و الثقافية و السياسية و غيرها .لهذا الموضوع أهمية تاريخية لما يقدمه من أحداث و وقائع لها علاقة بأصولنا، حيث تثبت الدراسة أن الحملات الإسلامية ببلاد المغرب لم تكن غزوا و انما فتحا له أبعاد حضارية بالدرجة الأولى.

الكلمات مفتاحية: بلاد المغرب؛ البربر؛ الحضارة؛ الفتح الاسلامي.

Abstract :

The conquest of the Maghreb took a long time, almost seventy years, due to the geographical difficulty of the country and the intensification of the barbaric resistance. Add to that the conflicts with the Byzantine powers, and the Muslims came to the countries of Maghreb in order to spread the Islamic religion among the Berbers, and not as some believe that they were presented for the sake of the spoils and the captivity, and the best evidence for that is the profound cultural implications of the conquest that included social aspects and cultural, political and other. This topic is of historical importance for its events and facts related to our origins, where the study proves that the Islamic campaigns in the countries of the Maghreb were not invaded but rather opened cultural dimensions in the first place.

Keywords: Maghreb, Berbers, Civilization, Islamic Conquest.

تمهيد:

لما فتح المسلمون بلاد المغرب اتجهت أنظارهم لصبغ البلاد بصبغة حضارية، فقاموا بإنشاء المؤسسات التعليمة المتمثلة في المساجد و الكتاتيب و الرباطات، واهتموا ببناء المراكز العسكرية لحماية بلاد المغرب من أي عدوان، كذلك أعادوا هيكلة اقتصاد البلاد.، لقد كان فتحا مس جميع المجالات.

1 . الجانب الثقافي و الاجتماعي:

1.1 المؤسسات التعليمية:

أ – المساجد:

تعتبر المساجد و الجوامع من المؤسسات الأولى التي مورس فيها التعليم بعد الفتوحات الاسلامية ببلاد المغرب في القرن الأول الهجري، حيث ارتبط انتشار الاسلام بانتشار المساجد.[1] فعندما حل العرب ببلاد المغرب بدأوا بنشر ثقافتهم من الأيام الأولى للفتح، حيث أسسوا مسجدين أحدهما في طرابلس و الثاني في جنزور (غرب طرابلس) و ذلك في حملة عمرو بن العاص عام 22هـ / 640م. [2]

يعتبر المسجد مكانا يجتمع فيه المسلمون للتباحث في أمور دينهم و دنياهم، إضافة الى كونه مركزا للدعوة الى الاسلام. و المسجد في الاسلام هو مؤسسة تعليمية قائمة بذاتها في الجانب التربوي. [3]

لما انتهى عقبة من بناء جامع القيروان، أصبح المسجد جامعة اسلامية للرجال و النساء أيضا، يدرسون فيها على سواء. [4] و تم بناء هذا المسجد في قلب مدينة القيروان بين العامين 50و 55هـ، ولم تصف لنا المصادر التاريخية عن مواصفات المسجد، و مده بالمعلمين و المرشدين لتفقيه البربر في الدين، وجعل دار الامارة في قبليه، ثم أخذ الناس في بناء الدور والمساكن و المساجد حوله. [5] و ليس فقط المسجد الجامع الذي تم بناءه، فقد بنى عقبة عدة مساجد لتكون مراكز لنشر الدين الإسلامي و تعليم البربر أصول دينهم، فبنى مثلا مسجدا في درعة، و آخر في ايجلي قاعدة السوس الأقصى و في ماسة أيضا. [6]

ب – الكتاتيب:

يقول الفيروزابادي:" الكتاب هو موضع تعليم الكتابة، كالتكتيب، كمقعد ومكتب" .[7] الكتاتيب مكان يكون غالبا بجوار المسجد، لتعليم القراءة و الكتابة و القران الكريم و شيىء من علوم الشريعة و اللغة العربية.[8]

لما قدم حسان بن النعمان الى افريقية أمر بتجديد بناء مسجد عقبة بن نافع، فبناه حسنا و جدده، و ذلك في شهر رمضان سنة أربع و ثمانين من الهجرة.[9] كما أمر حسان ببناء المسجد الجامع في تونس، وكان في الأصل ديرا للرهبان تخلوا عنه. [10]

شرع التابعين فيما بعد ببناء المساجد فهذا اسماعيل بن عبيد الأنصاري أحد أفراد البعثة العلمية التي بعث بها عمر بن عبد العزيز [11] يؤسس مسجدا كبيرا الذي عرف فيما بعد بجامع الزيتونة.[12]

كان المؤدب بالكتاب يعلم الاطفال القراءة و الكتابة و ترتيل بعض السور و حفظ أجزاء من القران و تجويده، علاوة على الالمام ببعض علم النحو و الفقه.[12] كان الكتاب مقتصرا على الصبيان يهدف الى تنشئتهم تنشئة دينية. و تعتبر الكتاتيب من أقدم المؤسسات العلمية التي عرفتها مهنة التعليم .[13]

لما فتح العرب من الصحابة و تابعيهم افريقية، أواسط القرن الأول الهجري، كان من بينهم كثير من عيالهم و ذراريهم فالتفوا الى تعليم صبيانهم فاتخذوا لهم الكتاتيب يجتمعون فيهم للقراءة و نشر الدين الاسلامي بين الأقارب و الأباعد.[14]

و روي أن غياث ابن أبي الاشعث قال: " كان سفيان ابن أبي وهب صاحب رسول الله صل الله عليه و سلم يمر ونحن غلمة فيسلم علينا ونحن في الكتاب و عليه عمامة قد أرخاها من خلفه." [15]

كان دخول الصحابي سفيان ابن أبي وهب الى افريقية عام 78هـ / 697م أي في خلافة عبد الملك بن مروان، نفهم من هذا أنه لم يمض ربع قرن على تأسيس القيروان حتى وجدت بها كتاتيب. [16] و طبيعي أن هذه المعاهد سيزداد عددها بانتشار العمران في افريقية لاسيما أن البربر و الأفارقة كانوا يتزاحمون أفواجا للدخول في الاسلام ويتعلمون دين و اللغة.[17]

ج – الرباطات:

تأتي الرباطات في المرتية الثالثة من حيث الاهمية في المؤسسات العلمية والثقافية في بلاد المغرب، فعبرها انتشرت علوم و معارف دينية على وجه الخصوص و أسهمت في المحصلة و الانتاج العلمي، كما أصبحت معهدا و مركزا دينيا لتثبيت الدعوة الاسلامية في صفوف المتطوعة .[18]

و الربط في اللغة يدل على شد و ثبات، من ذلك ربطت الشيء أربطه ربطا، و الذي يشد به رباط، و اصطلاحا فيقصد بالرباط ملازمة ثغر العدو، كأنهم قد ربطوا هناك فثبتوا و لازموه.[19]

الرباطات مراكز لانتشار الاسلام السني و لتوطيد الفاتحين الجدد [20]و لعبت دورين فهي مركز حربي و ثقافي معا، حربي حسب بناءه الذي يشبه القلعة المحصنة، ثقافي لتعليم المقيمين المرابطين للثقافة الاسلامية و المعارف الدينية. [21] و كان يجتمع في الرباطات العاملون على ترسيخ مبادئ الاسلام، سواء بتعليم العلوم النظرية كالفقه، أو التربية عن طريق القدوة الحسنة التي يعطيها الشيخ أو بواسطة الوعظ.[22]

2.1 انشار الاسلام و اللغة العربية:

انتشر الاسلام سريعا ببلاد المغرب كله أثناء وبعد الفتح، ويعود سبب ذلك لما تبين للبربر حقيقة الذي جاء به الفاتحون العرب، و لذلك أقلعوا عن مقاومتهم بسرعة ملفتة، بسبب مثالية الاسلام.

تجدر الاشارة أن من بين الصحابة الداخلين الى افريقية من له اختصاص معين بالقرآن، فعبد الله بن سعد بن أبي سرح كان من كتبة الوحي، و عبد الله بن الزبير كان عضو في لجنة كتبة مصحف عثمان بن عفان، و كذلك عبد الله بن عمر و عبد الله بن العباس... و غيرهم، ضف الى كون عددا من الصحابة الداخلين الى افريقية يملكون مصحفا خاصا كابن العباس و الزبير. [23]

حرص الفاتحين على تعليم الأفارقة، فترك عقبة بن نافع صاحبه شاكرا بالمغرب الأقصى يعلم البربر القران وذلك بعد حملته الثانية (64هـ/ 68م)، كما خلف موسى بن نصير مولاه طارقا على طنجة و ما ولاها و أمر العرب ايضا تعليم البربر القرآن و ذلك بعد توليته أمور افريقية سنة 83هـ / 702م . [24]

شهدت بلاد المغرب تقدما و تطورا كبيرين شمل معظم أوجه العلوم و المعرفة منذ اللحظة التي تم فيها فتح المغرب عموما بل مع المحاولات الأولى للفتح الذي كان فتحا عقائديا علميا بالدرجة الأولى. [25]

يجب الى الاشارة أن اللغة الامازيغية بمختلف لهجاتها كانت لغة الاغلبية الساحقة من سكان بلاد المغرب و بقيت أيضا اللاتينية لغة الأقلية في بعض الأماكن بعد دخول الاسلام. [26] و يعود الفضل الى حسان بن النعمان الذي قام بجعل اللغة العربية اللغة الرسمية. [27]

اهتم حسان بتعليم البربر اللغة العربية فجعلها لسان البلاد الرسمي تحرر بها الرسائل للعمال و يكتب بها في الدواوين و يخطب في الجمع و الأعياد فأقبل البربر يتعلمون اللغة العربية. و ان اللغة العربية لم تلغي البربرية، فهذه الأخيرة لازالت باقية، الى يومنا هذا. كما أن أعددا من المتطوعين كانوا لا يغادرون المناطق التي فتحها المسلمون خاصة الأمنة منها و لعل ذلك من الاسباب التي مكنت البربر من اتقان اللغة العربية.[28]

انتشرت العربية في بلاد المغرب، أيضا نتيجة لهجرات القبائل العربية الى هذه البلاد و تعريب الدواوين الذي بدأ في عهد ملك بن مروان.[29] كما بنى أبو المهاجر دينار مدينة تكروان، التي تقع على بعد ميلين شـــمالي القيروان ووجه اهتمامه لنشـر الدين الاسـلامي بواسـطة ارسـاله للدعاة و الوفود الى مختلف القبائل البربرية فدخل العديد منهم الى الاسلام. [30]

من الاصـلاحات التي قام بها الفاتحون تغيير الشـعار، فقد كان لقرطاجنة شـعار قومي اتخذته البلاد منذ أن اعتنقت النصرانية [31] فقام حسان بتغيره فعوض الصليب بوضع كرة الأرض وجعل ذلك شعارا للمسلمين. [32]

نعتقد أن حسـان بسـلوك سـياسـة المسـاواة بين العرب و البربر في الادارتين المدنية و العسـكرية، قد حبب الاسلام الى نفوس البربر و غيرهم، فاعتنقوه عن اقتناع بسماحته، و انتشرت بينهم العادات و التقاليد العربية و اللهجات جنبا الى جنب مع الاسلام. [33]

كذلك اتسمت سياسة موسى بن نصير باللين و الاعتدال، فاعتنق رؤساء القبائل البربر الاسلام، [34] كما قام موسى بتحويل الكنائس الى المساجد و قام أيضا ببناء مساجد جديدة كما فعل في أغمات لتعليم البربر القرآن و مبادى الاسلام. [35]

3.1 القيروان مركز ثقافي:

وصف لنا الادريسي القيروان: " القيروان أم المدن و عاصمة الأرض، أكبر عواصم المغرب و أكثرها سكانا، وعمران مزدهر ... " و ترمز القيروان الى عظمة الحضارة الاسلامية في كل المجالات. [36]

تعتبر القيروان أول مدينة انشأها المسلمون في افريقية فصارت عاصمة للمغرب الإسلامي وهي مركز التقاء الشـرق بالغرب، وكانت تقوم بنفس الدور السـياسـي والثقافي التي قامت به الكوفة و البصـرة، الا أن دور القيروان في الواقع كان أشمل، لأنها تفردت بالدور الثقافي في بلاد المغرب.[37]

كان دور القيروان واضحا في نشر الدين الاسلامي و التعريب بين قبائل البربر، فشيوخها من أبناء الصحابة و التابعين. و ترتب عن بنائها اعتناق الكثير من البربر للإسلام و سكنوها. [38]

و قد اسـتوطن القيروان و ضـواحيها القبائل العربية: التميميون و الأنصـار، الأوس و الخزرج، بنو جرير، الكنديون، كنانة، و غير هؤلاء، و بدأت الحياة الاجتماعية و الثقافية بها.[39]

بدأت الحياة الثقافية بالقيروان بالعلوم الدينية و على قمتها تعليم القرآن و الحديث ثم الفقه و التفسير الذي قدم مع قدوم الصـحابة. [40] كما نزل بها التابعين العشـرة أو بعثة عمر بن عبد العزيز ، ومن بينهم ابو مسـعود التجيبي الذي نزل ليفقه أهل القيروان ، فسكن بها و بث فيها علما كثيرا ، و كان رجلا صالحا مشهورا بالدين و الفضـل. [41]و كذلك ممن نزلوا القيروان عبد الله بن يزيد، الذي اختط بها دارا و مسـجدا و أقام يعلم البربر الدين الإسلامي.[42]

دخل القيروان من الصحابة اثني عشر من صغارهم ممن ولد على عهد رسول الله و لم يره منهم: عامر بن عمر بن الخطاب، عقبة بن نافع، عبد الله بن عمر بن الخطاب، ... وغيرهم، فقد كان لهؤلاء الصـحابة أثر في وضع بذور الحركة الفكرية في القيروان.[43] ان أطول فترة مكثها الصحابة في شكل جماعي بالقيروان هي

الفترة التي أســسـوا فيها هذه المدينة، و دامت مدة خمس ســنوات (50هـ – 55هـ) و في هذه الكدة الطويلة قاموا برواية علوم الكتاب و السنة .[44]

لما اختط عقبة المدينة أقام بوسطها المسجد الجامع حيث أن الدين يمثل محور حياة كل مسلم، ثم أسس دار الامارة بجانبه. [45]و عمرت القيروان بفضــلاء الناس من الفقهاء و المحدثين و العابدين و الزاهدين و أعز بها الاسلام.

4.1 البعثة العلمية:

أرســل الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز البعثة المتكونة من عشــرة من التابعين الى بلاد المغرب، بهدف تركيز الاســلام في أفئدة البربر، فخص أولئك مســتوى خطابهم للبربر ، وذلك لتبســيط الاســلام، فكان النجاح حليفهم على المدى الطويل ، مما ســاهم في وضــع أسس الاتجاه الســني هناك ، بل يمكن اعتبار هذه البعثة نواة لمدرســة المغرب.[46]و توزع أفراد هذه البعثة في مدن افريقية بجانب القيروان ينشــرون علومهم و يشــيعون بين الناس قراءة القرآن و فهم السنة النبوية ، زد على ذلك حرصــهم على بناء المساجد في المدن التي نزلوها ، فأقبل البربر على الاسلام .[47]

من المســـاجد التي بنيت على يد هؤلاء التابعين: مســـجد " الرباطي" بناه أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافري، و جامع "الزيتونة" بناه اسماعيل بن عبد الله. [48] يبدو أن أثر هذه البعثة كان كبيرا في رسم الاتجاه العلمي للأفارقة فكان أغلب اتجاههم اتجاها فقهيا و تخرجت على ايديهم الطبقة الأولى من علماء القيروان الذين واصــلوا المهمة، و رحل بعضــهم الى المشــرق لزيادة التحصــيل و الرواية ثم عادوا و نشــروا المذهب المالكي.[49]

واستعملهم عمر بن عبد العزيز على أهل افريقية سنة تسع و تسعين و قيل مئة [50]و هم:

-موهب بن حيي المعافري.

- حبان بن أبي جبلة.

-اسماعيل بن عبيد الله الأعور القرشي.

-اسماعيل بن عبيد مولى الانصار.

-طلق بن جبان.

-بكر بن سوادة.

-عبد الرحمن بن رافع التنوخي.

-أبو عبد الرحمن الحبلي.

-سعيد بن مسعود التجيبي.

-جعثل بن هاعان. [51]

و كان من بين هؤلاء التابعين الداخلين افريقية من كان مهتما بالقراءات و قراء القرآن، فإسماعيل بن عبد الله كان قبل ذلك مؤدب ولد امير المؤمنين عبد الملك بن مروان، و حافظا للقرآن و مقرئا، كذلك جعثل بن هاعان القارئ الفقيه كان قاضـــيا على جند افريقية زمن هشـــام بن عبد الملك. [52] و يذكر ابن عذاري عن

جعثل بن هاعان:" كان خير أمير و خير وال، ومازال حريصا على دعاء البربر الى الاسلام حتى أسلم بقية البربر بإفريقية على يديه ". [53]

5.1 اندماج العنصر العربي:

حمل الاسلام الى الفرد استقلال شخصيته فلم يربطه بالمعبد أو الكاهن ولا بالكنيسة، و انما المسلم فرد حر يتحمل المسؤولية لوحده. [54] و كانت الشعوب السابقة (الرومان – الوندال – البيزنطيون) تحدد ضمنيا مجالا جغرافيا للبربر، و تحدد بذلك مجالها الخاص ، معلنة عدم امتزاجها بسكان بلاد المغرب ، لذلك نجد المدن الرومانية اشبه بالقلاع و الحصون منها الى المدن ، ومع الفتح الاسلامي فتحت أبواب المدن في وجه السكان المحليين. [55]

أصبح المغرب في القرنين الأولين للفتح الاسلامي يتكون من مجموعة بشرية من عناصر متمايزة أهمها و أبرزها: البربر و العرب الفاتحون و الأفارقة و كذلك الروم وعناصر أخرى مهمشة.[56] و دخول العنصر العربي الى بلاد المغرب أدى الى الاحتكاك بين العرب و البربر و الى الاندماج من خلال المصاهرات التي تمت في وقت مبكر. [57]

سكن العرب مع البربر و امتزجوا بعضهم ببعض، ولم يكن للعرب تفوق على البربر في جميع الحقوق، الا في ما كان من الولاية العامة فانها كانت بأيدي العرب لخبرتهم بالشؤون الدولية، ولم تسند للبربر لعراقتهم في الفوضى، ومع ذلك فان العرب قد اقروا بعض رؤساء البربر على رئاستهم. [58] و ان كثيرا من الصحابة الفاتحين قد اتخذوا بافريقية السراري وأمهات الأولاد -كما ذكرت المصادر- فقد ولد لعبد الله بن عمر طفلة بموضع القيروان، ولجبلة بن عمرو عقب بإفريقية، كما كان لقيس بن يسار أولاد أيضا... وغيرهم. [59]

2. الجانب الاقتصادي:

ظهرت أول عملة مغربية اسلامية في عهد موسى بن نصير، الذي حاول أن يضرب النقود باسم الدولة الاسلامية الجديدة .[60]

بعد دخول المسلمين الى بلاد المغرب و فتحها ظهر النشاط التجاري، فقد راجت تجارة مواد جديدة ذرت الأرباح على الاقتصاد المغربي، فقد دخلت بلاد المغرب نباتات شرقية و قصب السكر و الزعفران ... وغير ذلك. [61] كما دفع حسان بن النعمان الناس لتجديد الغراسة و احياء الأراضي الموات و انباط المياه، و قام بمسح الأراضي و قطع عليها الخراج ووزعها على أهلها القدماء و أبطل نظام الاقطاع. [62]

وضرب نقودا أخرى حذف منها الصور و وضع مكانها كتابة باللغة اللاتينية، [63]و حذف من الدينار القرطاجي الصليب ووضع صورة عبد الملك بن مروان و ابنه الوليد بدلا من قيصر البيزنطيين. [64]

في سنة 30هـ غزا معاوية بن حديج افريقية، ونزل مكان القيروان اليوم، و عسكر بجيشه، و قام باحتقار آبارا سميت" بأبار حديج". [65]

و ساس العرب البربر سياسة الاخاء و المساواة، فتركوا لهم أراضيهم ولم يثقلوا كاهلهم بالضرائب، حتى ان مالية ولاية المغرب كانت غير كافية، و تمدها ولاية مصر كل عام بمائة ألف دينار. [66]

بدأت الحياة الاقتصادية في أيام حسان بن النعمان الذي رتب الدواوين ثم وجه عنايته بالناحية الاقتصادية، فوضع الخراج على عجم افريقية و على من قام معهم على النصرانية و الروم، وولى حنش بن عبد الله الصنعاني على جمع زكاة المسلمين.[67] و عندما طبق نظام الاقطاع الزراعي فقسم الأرض بين المسلمين منهم، وجعل لكل قبيلة قطعة من الأرض تستغلها و تكون مسؤولة عن صداقاتها.[68]

3. الجانب عسكري:

1.3 القيروان قاعدة عسكرية:

أول قاعدة عسكرية تم بناؤها ببلاد المغرب هي معسكر" القرن "الذي بناه معاوية بن حديج، فعززت الحماية ضد العدو، ولعبت دورا في الحماية من الفيضانات التي كانت تكتسح المنطقة على نحو دوري، و أسست بعدها في الجنوب الشرقي مدينة القيروان من طرف عقبة بن نافع التي كانت بمثابة القلعة الحامية لجنوده.[69] قد رأى عقبة في بداية ولايته على افريقية أن يعمل على توطيد المسلمين فيها، وذلك بأن يقيم لهم فيها قاعدة عسكرية ثابتة، فاختط مدينة القيروان.[70] و يقصد بالقيروان معظم المعسكر، والقافلة من الجماعة، و موضع اجتماع الجيش، ومحط أثقال الجيش و قيل هي الجيش نفسه. [71] فلما أراد عقبة بناء القيروان و أجابه المسلمون الى ذلك أتى بهم الى موضعها فقالوا له: *"أنك امرتنا بالبناء في شعارى و عياض لا تسلك و لا ترام ، ونحن نخاف من السباع و الحيات و غير ذلك من خشائش الأرض*". و كان عقبة مستجاب الدعوة. [71] فنادى عقبة بأعلى صوته: " *يا أهل القيروان ارتحلوا رحمكم الله فانا نازلون*، نادى بذلك ثلاثة أيام ... و أمر الناس بالتنقية و الخطط وركز رمحه و قال: *هذا قيروانكم* " [72] فنظر الناس ذلك اليوم الى السباع تخرج اليهم من الشعراء تحمل أشبالها و الذئب يحمل جراءه و الحية تحمل أولادها، [73] سمعا وطاعة، ثم نادى عقبة في الناس:" *أكفوا عنهم حتى يرتحلوا* " . [74]

و شرع عقبة بن نافع في ابتداء بناء معسكر القيروان عام 51هـ / 671م وفرغ من تشييده عام 55هـ / 675م، أي أن البناء استغرق خمس سنوات. [75]

تم بناء و اختيار قاعدة القيروان لبعدها عن السواحل، كون أن البيزنطيين يتحكمون بها، و ليس للمسلمين أسطول و قواعد بحرية آمنة التي يمكن بها مدافعة العدو و التغلب عليه في المعارك البحرية، فجعلت القيروان تبعد عن البحر ليتحقق لها الأمان النسبي كي لا تكون عرضة لهجمات أسطول العدو. [76]و من الأسباب أيضا أن العرب وقتئذ بإفريقية، لم يكن لهم معقل حصين يحميهم، و لا مدينة يلتجئون اليها، بعد انتهاء أعمالهم، لإصلاح شؤونهم، و استجماع قوامهم، و تضميد جروحهم، وتجديد أسلحتهم. [77] اتخذ بعد ذلك موسى بن نصير من القيروان قاعدة لمعظم غزواته و فتوحاته، يغزو البلاد، و يدوخ الأمصار، و يجاهد البربر و الروم. [78]

كان تأسيس قاعدة القيروان من أكبر أسباب تثبيت أقدام المسلمين في افريقية، لأنها أصبحت حصنا لهم، و عند بنائها كان عقبة يغزو الروم و البربر و يرسل السرايا الى طرابلس و جهات افريقية لإخضاع من نقضوا العهد. [79]

2.3 تونس القاعدة البحرية:

اختط حســـان بن النعمان مدينة تونس عام 82هـ / 701م لتكون قاعدة عســـكرية، بناها على أنقاض قرية قديمة عرفت باسـم " ترشـيش القديمة " ، و سـميت تونس بها الاسـم لوجود صـومعة الراهب و كانت سـرايا المسلمين تنزل بإزاء صـومعته و تأنس لصـوت الراهب فيقولون: هذه صـومعته تؤنس فلزمها هذا الاسـم حتى سميت تونس . [80]

أدرك حسان قبل أن يختط قاعدة تونس، أن طمأنينة البلاد في الداخل انما تتوقف على سلامتها في الخارج و هي واقعة على مقربة من البلاد النصرانية، و هو مطلب عسير مالم يكن له أسطول قوي يرابط على الثغور، فكتب الى عبد الملك يستأذنه بإنشاء مصـنع للمراكب البحرية. [81] فأرسل له الخليفة عبد الملك عمالا أقباطا من مصر، فوصلت البلاد ألف عائلة قبطية و بدأت مهمة بناء الأسطول. [82] وذلك لشهرة الأقباط في صناعة السفن، وجعل حسان على البربر جر الخشب لإنشاء المراكب ليكون لك جاريا عليهم الى آخر الدهر، واصل موسى بن نصير انشاء دار الصناعة من بعده و وسعها.[83]

و لم يؤسـس العرب الفاتحون في افريقية دار لصـناعة الأسـطول الا بعد حملة حسـان كما لم يصـبح للمغرب أســطوله الخاص به الا في ســنة 89هـ و قبل ذلك كانوا يعتمدون على ســفن مصــر من ســنة 28هـ الى 89هـ.[84]

بفضــل هذه القاعدة البحرية ، أصــبحت افريقية قوة بحرية مرهوبة ، منها يمارســون الغزو البحري و يحمون سواحلهم و ثغورهم من أي عدوان بيزنطي ، فلعبت بذلك دورين : أحدهما دفاعي و الأخر هجومي . [85] هكذا أصبحت تونس أيضا رباطا يحمي القيروان و حرسا للبحر و ميناء جديد يقوم مقام قرطاجنة. [86]

3.3 الرباطات:

الرباطات قلاع عسكرية يتجمع فيها الجند، و تتخذ أبراج للمراقبة لتحذير أهل البلاد المهددين وجنود الحاميات التي في الداخل البلاد، و تقوم فيه حجر للسـكن و مخازن للأسـلحة، وحصـون صـغيرة، وقد كانت شـواطئ افريقية تعج بها.[87]

أنشـــأت في بلاد المغرب من أجل صـــد هجمات البيزنطيين ، ومن بين الأربطة فان مدينة طرابلس كانت حصــنا منذ 64هـ ، كذلك مدينة درنة فقد كانت هي الأخرى رباطا الذي اســتهد فيها زهير بن قيس البلوي و عدد كبير من أصحابه عام 69هـ.[88]

ظهرت الرباطات كون المغرب كان و مازال يتميز بســواحل طويلة على البحر المتوســط، تجاور ســواحله الدولة البيزنطية و الفرنجة في جنوبي ايطاليا و الجزر المتناثرة مثل صقلية و سردينيا و كرسيكا ... وغيرها، و من الطبيعي أن تكون تلك السواحل معرضة للغارات البحرية المفاجئة. [89]

كانت الرباطات أول الأمر على سـاحل افريقية عند سـوسـة و لمطة و تونس، ومن تونس انتشـرت الرباطات البحرية وحدها حتى انتصــبت في افريقية خاصــة و المغرب عامة، و وجدت كذلك رباطات صــحراوية في المناطق المتخامة لبلاد السودان لحمالية منافذ و معابر الدولة الاسلامية. [90]

4.3 تجنيد البربر في الجيش:

قام أبو المهاجر دينار بتجنيد ألف بربري في الجيش العربي الاســـلامي بقيادة ابني الكاهنة. [91] و كان يدرك أبو المهاجر بان قوة العرب العددية في مصــر محدودة و غير كافية للسـيطرة على كل الشـمال الافريقي، و لهذا فانه يتوجب على العرب أن يتعاونوا مع البربر، فأراد أبو المهاجر أن ينشـئ جيشـا بربريا. [92] هكذا نفهم أن جند المغرب لم يكونوا من العرب وحدهم، بل أشـرك نفر من أهل البلاد، و رتب لهم حسـان أعطياتهم من بيت المال و سار على ذلك موسى بن نصير. [93]

دخل البربر الجندية لأول الفتح على عهد حسـان، و كانت لهم اليد الطولى في فتح الأندلس على يد موسـى بن نصير. [94] و اشترط حسان على البربر أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدته اثنا عشر ألف يجاهدون العدو، فأجابوه لذلك. [95] بذلك يكون حســـان قد زاد الجيش الاســـلامي بالمغرب قوة، ورتب لهم الأعطيات و سوى بينهم دون تمييز. [96]

الخاتمة:

دخلت الدعوة الإســـلامية للمغرب مع القوات الفاتحة إبان مرحلة الفتح، وعلى الرغم من طول هذه المرحلة والصعوبات العديدة التي واجهت العرب خلالها إلا أن الدعوة الإسلامية حققت انتشاراً ملحوظاً

في هذه المرحلة ، فقد اعتنق الإسـلام الكثير من القبائل وشـارك البربر في الجيش الإسـلامي الفاتح ، و في بناء مدينة القيروان وسـكنوها مع العرب وأفادوا من الصـحابة والتابعين الذين قطنوها , ونتيجة لظروف عملية الفتح فقد تفاوت الإسـلام في انتشـاره ما بين منطقة لأخرى ،وكان انتشـار الاسـلام فاعلاً في المغرب الأدنى وولاية إفريقية بسبب اتصال الدعوة في هذه المناطق واستقرار العرب الباكر فيها.

أهم نقطة يمكن استخلاصـها من هذه الدراسة أن الفتح الاسلامي لم يكن هدفه الغزو و النهب بل كان فتحا له مقوماته، فبعد أن أنهى الوجود البيزنطي من بلاد المغرب انطلقت عمليات البناء و التخطيط، و ترك الفتح أثار حضـارية لم يعهدها البربر من قبل، فقام الفاتحون المسـلمون ببناء المدن مثل القيروان التي تعد عصـب الثقافة الاسلامية بالمغرب وكذلك مدينة تونس، وشيدوا المساجد كمسجد عقبة وبنوا الآبار و ضربوا النقود... وغيرها من الأعمال التي قدمها الفاتحون لبلاد المغرب و التي تدل على نية الفتح الاسلامي.

الهوامش:

[1] حسـين اسـكان، تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصـر الوسـيط، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، المغرب، 2004م، ص.76.

[2] بشـير رمضـــان التليســي، الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الاســـلامي خلال القرن 4هـ / 10م، دار المدار الاســـلامي، 2003م، ص.187.

[3] الحياة العلمية في افريقية في عصــر الدولة الأغلبية، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه دولة في التاريخ الوسـيط، اعداد صـــاحي بوعلام، اشراف د/ خالد كبير علال، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، 1429هـ/2008م، ص .221.

[4] يوسـف أحمد حوالة، الحياة العلمية في افريقية منذ اتمام الفتح حتى منتصـف القرن هـ، ج.1، مكتبة الملك فهد الوطنية، مكة المكرمة، السعودية، 2000م، ص. 302.

[5] الحسن السائح، الحضارة الاسلامية في المغرب، ط.2، الدار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1986م، ص.124.

[6] نجوى عثمان، مساجد القيروان، دار عكرمة، دمشق، سوريا، 2000م، ص.14،67.

[7] لقبال موسى، المغرب الاسلامي، ط .3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1984م،ص.42.

[8] الدباغ (أبو زيد عبد الرحمن) (ت 696هـ.) ، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق محمد ماضـــود، مكتبة العتيقة، تونس، 1978م، ص.67.

[9] عبد العزيز الثعالبي، تاريخ شمال افريقيا، تحقيق أحمد بن ميلاد و أخرون، ط.2، دار الغرب الاسلامي، 1990م، ص. 70.

[10] عمر بن عبد العزيز بن مروان بن ابن الحكم، ثامن خلفاء بني أمية، ولد بالمدينة المنورة ســنة 63هـ / 623م أوصـــى له بالخلافة سليمان بن عبد الحكم و بويع له سنة 69هـ، الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد) (ت 776هـ.) : سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط.2 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، لبنان ،1982م، ص.250.

[11] يوسف أحمد حوالة، الحياة العلمية في افريقية منذ اتمام الفتح حتى منتصف القرن هـ،ج.1،مكتبة الملك فهد الوطنية ، مكة المكرمة ،السعودية،2000م، ص. 222 .

[12] الفيروزابادي، القاموس المحيط، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، ط.8، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2005م، ص.128.

[13] حسن عبد الغني ابو غدة، دور الوقف في تعزيز التقدم المعرفي، الامارات العربية المتحدة، 2011م، ص .201.

[14] حمودة عبد الحميد حسين: تاريخ المغرب في العصر الاسلامي، دار الثقافة، القاهرة، مصر، 2006م، ص.175.

[15] صاحي بوعلام، المرجع السابق، ص .227.

[16] محمد بن سحنون، آداب المعلمين، تحقيق محمد العروسي المطوي، ط.2، دار الكتب الشرقية، تونس ،1972م، ص.33.

[17] الدباغ، المصدر السابق، ج.1، ص.15.

[18] صاحي بوعلام، المرجع السابق، ص .213.

[19] محمد بن سحنون، المصدر السابق، ص.34.

[20] يوسف أحمد حوالة، المرجع السابق، ص.234،239.

[21] أبي الحســن احمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد الســلام محمد هارون، دار الفكر، 1979م، ج.2، ص. 479.

[22] ناجي جلول، الرباطات البحرية بإفريقية في العصر الوسيط، تونس ،1999م، ص.10.

[23] الحسن السائح، المرجع السابق، ص .138.

[24] حسين اسكان، الرجع السابق، ص .152.

[25] هند شلبي، القراءات بإفريقية من الفتح الى منتصف القرن الخامس الهجري، الدار العربية للكتاب، 1983م، ص.280.

[26] هند شلبي، المرجع السابق، ص .38.

[27] يوسف أحمد حوالة، المرجع السابق، ص .85،86.

[28] صدفي علي ازايكو، الاسلام و الأمازيغ، دار أبي رقاق، الرباط، المغرب، 2002م، ص.19.

[29] هند شلبي، المرجع السابق، ص .38.

[30] هند شلبي، المرجع السابق، ص.189.

[31] الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الاسلامي خلال القرن 4هـ/ 10م، دار المدار الاسلامي، 2003م، ص. 189.

[32] عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، تاريخ المغرب و الأندلس، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، مصر، د.ت، ص.29.

[33] ذنون طه عبد الواحد، الفتح و الاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا و الأندلس، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، 2004م، ص.111،125.

[34] عبد العزيز الثعالبي، نفس المرجع السابق ، ص .78.

[35] موسى لقبال، المرجع السابق، ص .72.

[36] عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، ط.5، الدار البيضاء، المغرب ،1996م، ص .124.

[37] جورج مارسيه، بلاد المغرب و علاقاتها بالمشرق الاسلامي في العصور الوسطى، ترجمة عن الفرنسية محمود عبد الصمد هيكل، منشاة المعارف، الإسكندرية، مصر، 1999م، ص.44.

[38] Salah Zaineche, Al – Qayrawan, FSTC , september , 2004 , Britan , p. 2.

[39] يوسف أحمد حوالة، المرجع السابق، ص.148،149.

[40] عبد الحسين محمد حمودة، المرجع السابق، ص .59.

[41] محمد محمد زيتون، القيروان ودورها الحضاري، دار المنار، القاهرة، مصر، 1988م، ص.168.

[42] الدباغ، المصدر السابق، ج .1، ص.180،184.

[43] الدباغ، المصدر السابق، ج .1، ص.161،167.

[44] محمد محمد زيتون، المرجع السابق، ص.189،190.

[45] الصلابي محمد علي، صفحات من تاريخ ليبيا الاسلامي و الشمال الافريقي، دار البيارق، عمان ،1998م.ص.535.

[46] عبد العزيز الدولاتي و آخرون، تونس أعلام و معالم، وزارة الثقافة، تونس، 1997م، ص .168.

[47] نجم الدين الهناتي، المذهب المالكي بالغرب الاسلامي، دار تبر الزمن، تونس، 2004م، ص. 8،19.

[48] يوسف أحمد حوالة، المرجع السابق، ص.103.

[49] لتليسي بشير رمضان، الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الاسلامي خلال القرن 4هـ/ 10م، دار المدار الاسلامي، 2003م، ص.62.

[50] فهد بن عبد الرحمن الرحمن بن سليمان الرومي، التفسير الفقهي في القيروان حتى القرن 5م، مكتبة التوبة، السعودية، 1997م، ص.10.

[51] الدباغ، المصدر السابق، ج.1، ص. 203.

[52] ابو العرب تميم (محمد بن احمد بن تميم القيرواني) (ت 333هـ)، طبقات علماء افريقية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، د.ت، ص. 20،21.

[53] هند شلبي، المرجع السابق، ص .34،35.

[54] ابن عذاري المراكشي (أواخر القرن 7هـ.)، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تحقيق ج. س كولان و ليقي بروفنسال، ط.3، دار الثقافة، بيروت، لبنان، م1983، ص. 48.

[55] الحسن السائح، المرجع السابق، ص .122.

[56] عبد العزيز غورودو، الفتح الاسلامي لبلاد المغرب، ط.2، دار ناشري، الكويت، 2011م، ص.69.

[57] هاشم العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن 4هـ/10م، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، المغرب، ج.1، د.ت، ص 233.

[58] عبد الحميد حسين حمودة، المرجع السابق، ص.181.

[59] مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت، ص.43،44.

[60] علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص.353.

[61] الحسن السائح، المرجع السابق، ص.140.

[62] عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص .78،79.

[63] عبد العزيز الثعالبي، نفسه.

[64] محمد محمد زيتون، المرجع السابق، ص.154.

[65] عثمان نجوى، مساجد القيروان، دار عكرمة، دمشق، سوريا، 2000م، ص.13.

[66] مبارك محمد الميلي، المرجع السابق، ص.44.

[67] محمد محمد زيتون، المرجع السابق، ص.135.

[68] موسى لقبال، المرجع السابق، ص .71.

[69] Fitory Dearborn, Encyclopedia of African History ,volume 3, Kevin Shillington , ed., 2005 ,New York,USA., p. 1237.

[70] العبادي أحمد مختار، تاريخ المغرب و الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د.ت، ص. 39.

[71] شيت خطاب محمود، قادة فتح المغرب العربي، ط.2، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2008م، ص.103.

[72] النويري (شـــهاب الدين احمد بن عبد الوهاب) (ت 378هـ.)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق عبد المجيد تزحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت، ص.112.

[73] ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله) (ت 257هـ.)، فتوح مصـر و المغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، الذخائر، القاهرة، 2001م، ص. 250.

[74] المالكي (عبد الرحمن بن نصـر الشـيزري) (ت 453هـ)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان و افريقية، تحقيق بشـير بكوش، ط .2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1994م، ص. 12.

[75] الماكي، نفسه.

[76] حركة الجهاد و الفتح الاســلامي في عهد الدولة الاموية و اثرها في الدعوة الى الله و انتشــار الاســلام، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في الدراسات الاسلامية، اعداد ناصر محمد عبد الله أحمد، اشراف د/ عبد الرحمن بن عثمان الحجازي، قسم الدراسات العليا، لبنان، 1429هـ /2008م، ص.50،53.

[77] محمد محمد زيتون ، المرجع السابق، ص .74.

[78] موسى لقبال، المرجع السابق، ص .28.

[79] شامي يحي، موسى بن نصير الفاتح الذي لم تهزم له راية، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، 2005م، ص.36.

[80] الزاوي أحمد الطاهر، تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، ط.4 ، دار المنار الاسلامي، بيروت، لبنان ، 2004م، ص. 91.

[81] ناصر محمد عبد الله أحمد، المرجع السابق، ص. 50.

[82] عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص .79.

[83] عبد الواحد ذنون طه، المرجع السابق، ص .126.

[84] عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية في المغرب و الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1969م، ص .28،29.

[85] عبد العزيز سالم، نفسه.

[86] موسى لقبال ، المرجع السابق ، ص .71.

[87] مؤنس حسين ، معالم تاريخ المغرب و الاندلس، مؤسسة المعارف ، بيروت،لبنان ، 1980م، ص.263.